بطرس العشّار (١)

دراما في خمسة فصول

١٨٩٤

(١) العشار : في العنوان دعي « العشار » ؛ وهو عشار الإنجيل (لوقا ١٨ : ٩ — ١٤) ؛ وفي النص دعي « الخباز » . ومن الصعب التوفيق بين هاتين الصفتين ؛ ولعل تولستوي قد فهم « العشار » بالمعنى الأوسع ، أي : الخاطىء التائب .

الفصل الأول

« تجري الأحداث في القرن الثالث ، في سورية » .

المشهد — ١ —

« ساحة أمام منزل سرياني ثريّ . المتسوّلون : امرأتان وثلاثة رجال ؛ يمرّ سكان المدينة ؛ المتسوّلون يتسوّلون فيُعْطَوْن دراهم ؛ ينضمّ حاجٌ إلى المتسوّلين » .

الحاج : طابَ يومكم ، أيها الرفاق .

المتسوّل الأول : من أين أنت قادمٌ ؟

الحاج : من القاهرة ، وهل الناسُ هنا من ذوي الإحسان ؟

المتسوّل الأول : اوه لا ! الحالُ سيئة ! الأغنياء قلّة قليلة .

الحاج : كيف « قلّة قليلة » ؟ وهذه المساكن البديعة ؟ (يشير بيده إلى بيت جميل) . لا بدّ أن يكون صاحبُه غنياً ؟ .

المتسوّل الأول : نعم ! صحيح ! هذا غنيّ جداً . لكنه يُؤْثِرُ أن يَشْنُق نفسه على أن يُعطي صَدَقةً .

المتسوّل الثاني : كلُّ الناس هنا يَعْرِفون بطرس الخبّاز ؛ منذ أن سكنتُ هذه المدينة — أي منذ ثلاثين سنة — لم أَسمعْ أنه أعْطى كسرةَ خبز . لا ! حتى ولا كسرةَ خبز .

المتسوّل الثالث: وزوجتُه ؟ وابنتُه ؟ أهما يشبهانه ؟

المتسوّلة الثانية : لا ، ابنتُه مع ذلك أفضل ؛ خادمتهم قالت لي ذلك .

المتسوّلة الأولى: ليس على الأرض مَنْ هو أبخلُ من بطرس هذا ؛ إنه لا يعطي أحداً درهماً .

الحاج : كيف ؟ لا يعطي شيئاً أبداً ؟ من عَرَفَ كيف يسأل فهو يَحْصل دائماً على ما يريد .

المتسوّل الأول : حاولْ قليلاً وسترى !

الحاج : سأُحاولُ بالتأكيد . ليس من إنسانٍ لا يعطيني عندما أتشبّثُ به وأُلحفُ في السؤال .

المتسولتان والمتسولون ، جميعهم في آن واحد : لن تَنْجح .

الحاج : أتريدون أن تراهنوا ؟

المتسوّل الأول : إذا شئت ! لكنْ ما الرهان ؟

(يتجمّع الجميع حول الحاج) .

الحاج : أُراهنُ بثلاثة دراهم .

المتسوّل الأول : قبلتُ الرهان ، اضربْ يدَك هنا ! (يضربُ كل منهما يدَ الآخر وهما يضحكان) . هات الدراهم .

(يُخرج كل من الحاج والمتسول الدراهمَ ويسلّمانها إلى المتسوّلة الأولى) .

المتسوّلة الثانية : انظروا ! ها هو ذا بعينه ! إنه يَحْمل أرغفةَ الخبز للأمير .

(يصل بطرس ووراءه عبدٌ يحمل سلةً مملوءة بالأرغفة الذهبيّة الشهيّة ؛ يتّجه الحاجُ نحو بطرس) .

الحاج : بجاه المسيح ! أعْطِ الحاجَ المسكين ! ارحمْني بجاه المسيح ؛ أكاد أموتُ جوعاً .

بطرس ، يكلّم خادمَه دون أن يتوقّف ، يتبعُه الحاج ويتشبّث . بقدمه وبطرف ردائه . يدفعه بطرس بقسوة ويلتفت إليه : ارجعْ ، يا كلب !

الحاج : أيها السيّد المبجّل ! اوه ! يا مطعمَ الفقراء ! ارحمْني !

بطرس : ارجعْ ! انصرفْ !

الحاج ، يعود من الجهة الثانية ويرتمي على قدميه : أوه ! يا مطعمُ الفقراء ! بجاه السماء ! أتوسّل إليك أن ترحمني .

بطرس : ارجعْ ! افسح الطريق ! وإلا قتلتكَ !

(ينحني ويلتقط حجراً كبيراً من الأرض . ويهمّ بضرب الحاج) .

الحاج ، بصوت مؤثر : ارحمنْي ! ارحمني ! ارحمني ! ارحمني ! أرجوك ! ارحمنْي !

بطرس : دعْني أمرّ . ارجع ! حذارِ ! انْصرفْ !

(يتعثّيا ، فيتناول بحركة غاضبةٍ رغيفاً من السلة ويرميه إليه . يأخذ الحاج الرغيفَ ويجري نحو المتسولين وقد بدا عليه الفرح) .

الحاج : آه ! آه ! رأيتمُ ! نجحتُ ! ربحتُ الرغيف ! هذه هي صدقةُ بطرس . (يُري الرغيفَ الجميل) . هاتي الدراهم .

المتسوّل الثاني : أنتَ محظوظٌ ! لقد ربحتَ ! يجب أن نشرب نخبك .

ستار

الفصل الثاني

المشهد – ١ –

داخل منزل . في المقدّمة تجلس زوجةُ بطرس وابنتُه . في صدر المسرح سريرٌ ينام عليه بطرس ؛ هو يَهْذي » .

بطرس : آه ؟ مِنْ هؤلاء اللصوص ! خَرَّبوا بيتي ! أسرفوا في الطحين ! ادفعْ هذا المبلغَ ! ادفع المالَ ! اذبْح لي هذا الملاكَ ! الزهورُ تَعْزِف الموسيقا ! وداعاً ، أنا أموت .

زوجةُ بطرس: مرّ عليه حتى هذا المساء ثلاثةُ أيام وهو في هذه الحالة ؛ يبدو أنه لا يتحسّن ؛ على ألاّ تكون هذه هي النهاية .

(تدْخل من الباب مُلْهَمَةٌ ، صاحبةُ رؤيا) .

المُلهمة : طاب يومُكِ ، يابنتي ! أنتِ تبكين دائماً ؟ تظنين أنكِ ستدفنين زوجَكِ ؟ لا تَخْشي ! لا تخافي ! لا خَطَرَ عليه من الموت ! لن يموت ، لم يَتَجَهزْ بعد . جمّع المالَ أثناء ثلاثين سنةً من حياته ؛ ولا بدّ له من ثلاثين سنة حتى يُنفقه . في هذه اللحظة فقط يغدو جاهزاً للموت !

زوجة بطرس : أنتِ تَنْطقين بحماقات ، يا ايدوسيا ! أأنتِ جائعة ؟ أتريدين أن تأكلي ؟

الملهَمة : أنا بغنى عن الأكل ! لستُ جائعةً ! أنا بغنى عن الجوع ! يا عجوز ، أنتَ نائمٌ ؟ أأنت نائم ؟

(تدخل ابنةُ بطرس . ينهض بطرس لحظةً على فراشه ويُصيخ السمع) .

المُلْهِمة : لا يمكن للغني أن يدخل الجنّة . أنتَ لا يمكنك أن تَدْخلها ؛ عبثاً تتشبّث وتُلحف في السؤال ! لن تمرّ ! ستَهْبط إلى الجحيم !

المشهد — ٢ —

« يدخل طبيب ؛ الزوجة والملهمة ؛ يَنْقز بطرس على سريره ويصرخ » .

بطرس : جئتَ لتَخْنقني ! ماذا تريد ؟ لا أحبّ أن أراك !

الطبيب : اهدأْ ، يا بطرس ، سيزول السوءُ عنكَ ! ستشفى .

(يمسك به من يده ويُجلسه على سريره) .

الملهمة : يا له من أحمق ! يا له من أحمق ! أحمق ! استَ تفعل سوى الحماقات ! ستُفسد عليّ عملي ! أُفضّلُ أن أنصرف على أن أرى هذا !

(تهربُ راكضة) .

الطبيب ، مخاطباً زوجة بطرس : أمسكيه ! (يتسمّع إلى صدر بطرس ويتكلّم بينه وبين نفسه) . هنا ، لا شيء ! عجباً ، هو يبدأ هنا ! آه ! هذا هو ! هذا هو ! إني أسمعُ شيئاً ، يجب أن يكون هنا ! هو هنا حقاً ! سأطرد ذلك كله . (يخاطب بطرس) . ستشفى ، اهدأ ، واطمئنّ ! ستشفى عمّا قريب ! (يُخرج من جيبه قارورة صغيرةً ، ويُمسك

برأس بطرس ، ويسقيه من القارورة ، ويريها قارورةً أخرى يُعطيها إياها) . وبهذه افركي جسمَه كلَّه .

(يخرج الطبيب بعد أن انتهى ؛ تتبعه زوجةُ بطرس) .

المشهد — ٣ —

« بطرس وحده مضطجع ؛ لايُسمَعُ شيء ؛ صمتٌ ؛ وفجأة ينهض بطرس ويجلس على سريره » .

بطرس : لكنْ ما هذا ؟ أحسّ أنني سأموت ! هذا هو الموت ! أحسّ أنني أموت . هوذا الملاكُ الذي جاء يطلب روحي ! قالَ لي الساعةَ : إنني سأشفى . لكنْ أيَّ شفاء قَصَدَ ؟ هذا هو الموت ! الموتُ الذي ينتظرني ! يا إلهي ! ما الذي ينتظرني فوق ؟ ما الذي تُخبِّئُه لي السماءُ ؟ أصحيحٌ أن الأغنياء لا يجوز لهم أن يَدخلوا ملكوت السموات ؟ أصحيح أنني سأُكرَه على دَفْع ثمن قسوتي وبخلي ؟ إني لم أرحمْ قطّ الأرامل واليتامى والمرضى والبائسين ! أهذا صحيح ؟ أهذا ممكنٌ حقّاً ؟ وكيف أمكنَ أنني لم أفهمْ ذلك قط . كان الأفضل أن أوزّع مالي كله بدلاً من أن تحملني شياطينُ الموت السود . ها هي آتية ! إني أسمعها ! صارت هنا ! إنها تُنشبُ مخالبها كلها في روحي (يرفع رأسه وينظر إلى الأعلى) . ها أنا ألمح الميزان العظيم الذي ستُوزن عليه سيئاتي وحسناتي . عجباً ! إني أراها ! ها هي تضعُ في كِفّة كلَّ المال الذي سرقتُه ، الذي أخذْتُه من الأرامل واليتامى ؛ وها هي أيضاً الأجرة التي لم

أدْفَعْها للعمال ، والإهانات والشتائم والضربات التي أذنبتُ بها . انتهى الأمرُ ! قُضِيَ عليّ ! طفحتْ كفّةُ الميزان ؛ وها هي الكفة تنخفض وتَهْبط وتسقط ، وتبلغ الحضيضَ . إني أرى الشياطين فرحةً ! الشياطين تبتهج ؛ قُضي الأمر ، لقد هلكتُ ! آه ! آه ! آه ! أراها تبحث عمّا تضعُه في الكفّة الأخرى ؟ ماذا ! ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ لا ، هذا غيرُ ممكن ؟ هذا سخيف ! تريدُ أن تهزأ بي ! ماذا ، رغيفٌ ؟ رغيفٌ لا غير ؟ لا شيء إلا هذا الرغيف الحقير ! عرفتُه : إنه الرغيف الذي رمَيْتُه لذلك المتسوّل الذي أخرجني عن طوري . يا للسماء ! ماذا جرى ؟ ماذا أرى ؟ الكفّةُ التي وُضعَ فيها هذا الرغيف البسيط تَميلُ ؛ إن الخبزَ هو الأثقلُ ، إنه أثقل من كل سيئاتي ! فهمتُ الآن معنى الرحمة . فهمتُ الآن وَزْنَ الرحمة . يا إلهي ، رُدَّ عني الموتَ ، الآن بعد أن فهمتُ . فأنا أعرف ما يَنْبغي أن أفعله ، وما سأفعلُه . سأقسم أموالي كلها بيني وبين الفقراء . لن أحتفظ بشيء .

(يرتمي على فراشه وينام) .

ستار

الفصل الثالث

المشهد — ١ —

« يمثّل المسرح واجهةَ بيت بطرس . على مطاع الدرج ، يُرى بطرس وقد أحاط به جمهورٌ غفير من المتسولين ومن الناس المختلفي الأنواع . يوزّع ويقسم بطرس المال الذي يُخرجه من كيس كبير . »

المتسوّل الأول : يارجل أنتَ أخذتَ نصيبَك ! هذه هي المرة الثانية التي تأخذُ فيها نقوداً ! رأيتُكَ بعيني !

(يهجم على المتسول الآخر ويدفعه .)

المتسول الثاني : أنت تكذب . وقد رأيتك ، أنتَ نفسك : هذه هي المرة الثالثة التي تأخذ فيها .

امرأة : دَهَسْتموني !

صوتٌ في الجمهور : أنتَ ! أخذتَ ! لا تَبْقَ هنا .

المتسوّل الثالث مخاطباً بطرس وهو يتباكى : أَعطِني ، من فضلكَ ، أعطني أنا ! أنا ! لي خمسة أطفال صغار ! ارحمْ صغاري !

(تسْمع شكاوي شتّى واحتجاجات .)

بطرس : خذوا ! خذوا ! ها أنا أُعطيكم كلَّ شيء ! خذوا ! عندي ما يكفي الجميع ! ما يكفي الناس جميعاً ! لا تتخاصموا ، من

فضلكم ! أطلبُ إليكم ألا تتشاجروا ، ألا يَشْتم بعضُكم بعضاً ! شدّ ما نشرتُ السوء من حولي ! شدّ ما شتمتُ الناس ! فلا تَفْعلوا ، أنتم ، ذلك بعد الآن . سامحوني بجاه المسيح !

المشهد — ٢ —

« تصل زوجةُ بطرس راكضةً ؛ تقف ، وتنتزع الكيسَ من يديْ بطرس وتتشبثّ به ، وباليد الأخرى تهز بطرس وتصرخ به »

زوجة بطرس : ماذا تَفْعل هنا أيها اللص ؟ قبضتُ عليك بِفَعْلتكَ ! تُريد أن تُلجئنا إلى الفاقة ! تريد أن تجعل منا متسوّلين ؟ أمس كنتَ شحيحاً مُفرطَ الشح ! كنتَ بخيلا خسيساً ! وإذا بك تَنْتقل من الضدّ إلى الضدّ ! أصبحتَ الآن مبذراً مسرفاً . يالص ! أنتَ ما تزالُ مريضاً ! قسماً ، لقد جُننتَ !

(بعد أن انتزعتْ منه كل النقود التي حاولتْ أن تجمعها ، تُهينُه وتدفعه إلى بابَ مدخل بيتهما ؛ وتَزْعق بالجمهور أن ذلك انتهى وأن عليه أن ينصرف . وما ان يُغْلَق الباب ، حتى يتهامس الناس وهم ما يزالون مذهلين ،ويتفرّقون .)

المشهد — ٣ —

« بطرس الخبّاز يخرج وهو يتكلّم مع اليعازر، عبده الأمين »

بطرس : هل سمعتَ ؟ عِدْني بأنك ستفعل ما سأطلبُه منك ؟

اليعازر : سأفعلُ كلَّ شيء ! كلّ ما طلبْتَه مني لأنني أحبك ،

في الوقت الحاضر ، أكثر مما أحبُّ أبي وأمي . أحبُّك لأنني أرى فيك روحَ الله .

بطرس : هذا وَعْدٌ منكَ ؟ وعدْتَني بذلك ؟ أتقسم ؟

اليعازر . مؤدياً القسم وراءه : بعقيدتي ! بشرفي ! أعدك بذلك ، وأقسم عليه !

بطرس : طيّب ، صدّقْتُكَ ! أنا أثقُ بك ! وهذا هو الموضوع : أنت تعرفُ أسرتي . تعرفها جيداً ، وتعلم أنها تمنعني من توزيع أموالي على الفقراء . ليس لي أن أحكم عليهم وقد أذعنتُ لحُججهم . ليس لي الحق في أن أعتدي على مصالحهم العائلية . ليس لي أن أناقض مشيئتهم أو أعمل ضدّها ، ومع ذلك فليس بوسعي أن أستمرّ في الوضع الذي أنا فيه . لم أعدْ أحتملُ ! أعرفُ أين واجبي . أدركتُ ذنوبي . انفتحت عيناي . يجب أن أفتدي نفسي ! أن أكفّر عن ذنوبي . يجب أن أخدم الله ! يجب أن أُطيع الله ! الله هو الحقيقة ! الحقيقة الوحيدة ! جاء في الكتاب المقدّس : « بعْ أملاكك ووزّعْها على الفقراء » . لكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك . أودّ أن أتبع كلامَ الكتاب المقدّس ، لكنّ ذلك غيرُ مسموحٍ لي ، هم يمنعونني من ذلك ، ويحظرونه علي . أسرتي تحرّم علي أن أبيع أملاكي وأوزّع أموالي . ليس بوسعي أن أتصرّف بثروتي . لم تعد ثروتي ملكاً لي . لكن لي الحقّ في أن أتصرّف بنفسي — (ينظر إلى اليعازر كالملهَم .) ولمّا لم يَبْقَ لي شيء أعطيه من مالي أو أراضيّ ، لم يبقَ لي سوى

هذا الحل : أن أبيعَ نفسي للناس . هذه هي مشيئتي . ستذهبُ بي إلى سوق النخاسة . فاربطْ يديّ . (يمد بطرس يديه لا ليعازر .) خذْني إلى سوق النخاسة وبِعْني كما لو كنتَ عبداً لك . بِعنْي كأنني مالٌ لكَ . فاذا بِعْتني وَزِّعْ المال الذي تتسلّمُه على الفقراء .

اليعازر : يامعلم ! يامعلم ! لايمكنني أن أفعل هذا أبداً !

بطرس : لقد أقْسمتَ ، مع ذلك ، يا اليعازر ! فماذا تفعل بقسمك ؟ وَعَدْتَني بذلك وأقسمتَ عليه .

اليعازر : يامعلم ! لا تطلبْ ذلكَ مني ! لا تَجرْحني . أتألمّ ! أعتِقْني من قسمي ! ما تطلبُه مني مُرعبٌ .

أنا أسامحك ! واشفقُ عليك ! فسامِحني واشفقْ عليّ !

بطرس : أهذا وقتُ الشفقة ! لمَ لمْ تشفقْ عليّ من قبل ، عندما كنتُ أسيء ، وعندما كنتُ أرتكبُ السيئات ، عندما كنتُ أسير مباشرة إلى هلاك نفسي ، عندما كنتُ أمضي إلى هلاكي الأبدي ، دون أية معونة ؟ في هذا اليوم جئتَ تشفق علي ؟ اليوم الذي اخترتُه لافتداء نفسي ، لخلاصي .

اليعازر ، مُرْهَقاً ، خامد العزم ، راضخاً للواقع ، وهو يطلق زفرة عظيمة : لتكنْ مشيئتُكَ ، يا معلم !

زوجة بطرس تدخل : عودا ، عودا ! حسبكما ثرثرة ! عودا بسرعة !

(تخرج)

ستار

الفصل الرابع

سوق النخاسة

المشهد – ١ –

« عبيد رقيق مقيدون في كل مكان : رجالٌ ونساء يمسكهم أصحابهم بالسلاسل : المالك الأول مع عبدين ، المالك الثاني مع عبدٍ عجوز وفتى . ووسط هؤلاء يبدو اليعازر مع بطرس مقيداً . يتناقش المشترون فيما بينهم ، ويجسّون العبيد ليقدّروا أثمانهم »

المشتري الأول : كم تطلبُ بتلك ؟ ما آخرُ سعرٍ عندك ؟

(يشير إلى فتاة حسناء باصبعه ذات الخاتم الثمين .)

التاجر الأول : مئتا درهم .

المشتري الأول : وماذا تُحسنُ لقاء هذا المبلغ ؟ فأنتَ لا تُعطيها بمبلغ زهيد !

التاجر الأول : تُحسن الرقصَ والغناء .

المشتري الأول : هذا غيرُ كافٍ . أتُحسن الطبخَ ؟

تاجر الرقيق الأول : إن كنتَ تبحثُ عن طاهيةٍ فهي لا تُناسبُك ! الأصحّ أن تختار عجوزاً .

المشتري الأول : في هذه الحالة ، أنا في غنىً عنها . وأنا أتركها لكَ .

المشتري الثاني ، مقتربا من الشيخ والفتى الذي يجسّه ويقلّبه ويخاطب بائع الرقيق الثاني كم تطالبُ بهذين ؟

التاجر الثاني : مئة وثلاثين درهماً .

المشتري الثاني : مَنْ تريد أن يُعطيك هذا المبلغ ؟ اللعنةُ عليهما . فلستَ تبيعهما بالرخص . (يلمس بيده يد الشيخ وذراعه .) لم يَبْقَ في هذا قوىً ، أما ذاك فليس له بعدُ شيءٌ منها . إنه فتى صغير . هذا آخرُ سعرٍ عندك . (يداعب العبد الشاب) كنْ معقولاً لنتّفقَ . الصفقةُ تتوقّف عليك . ما قولُكَ ؟

بائع الرقيق الثاني : هذا آخر سعرٍ عندي . قلتُ كلمتي . ولستُ أكاسر أبداً . إذا كنتَ لا تقبل به فاتركْهما لمشترٍ آخر .

المشتري الثاني : في هذه الحالة ، ليس هذان هما ما أنْشُد . أنا في غنى عنهما . (يدنو من بطرس واليعازر وهو يتكلم ويخاطب بطرس بعجرفة ظاهرة .) وأنتَ ، ما العمل الذي يمكنك القيامُ به ؟ أأنت قويّ البنية ؟ أنا بحاجة إلى واحد قويٍّ ، شديد المراس ، مقاوم لجميع أنواع التعب . أأنت ذلك الرجل ؟

(يتجادل اليعازر وبطرس في هذه الأثناء ؛ ويُسْمَعَ اليعازر وهو يهمس بصوت خفيض .)

اليعازر : لا أستطيع ، سامحْني ؛ لا أستطيع ، هذا فوق طاقتي . بطرس ، وباللهجة نفسها ، يُجيبه موبّخاً : تذكّر قسمَكَ ! لقد أقْسمتَ ! (ويجيب هو نفسه المشتري الثاني .)

أنا صالح لكل شيء ، وبوسعي أن أفعل كلّ شيء ، وأن أقوم بأشقّ الأعمال ، بحسب مشيئتك المطلقة . وفوق ذلك ، فأنا أعرف الكتابة والحساب .

المشتري الثاني ، مخاطباً اليعازر : كم تَطْلبُ به ؟ ما سعرُك ؟

بطرس ، يهمس في أذن اليعازر : **قلْ له : إنك تَنْوي بيعي بمئة** درهم .

اليعازر ، مردداً بجهد : أبيعُه ، أتنازل عنه بمئة درهم ! مئة درهم !

المشهد — ٢ —

« يُرى مصريان يقتربان »

المصري الأول ، مخاطباً المشتري الثاني : لأيّ عمل تطلبُ رقيقاً .

المشتري : أطلب واحداً لعمل قاسٍ وشاق . أطلب رجلاً يتحمّل المصاعبَ فيُقَدم لي هذا الرقيق الذي يَعْرف القراءة والكتابة ؛ إن رجلاً من هذا النوع لا يمكن أن تكون له أية فائدة عندي ؛ هذا لا يُحسن احتمال عناء التعب .

المصري الأول : هذا يناسبني تماماً . هذا يلائمني . ففي مهنتي كبائع للأحجار الكريمة ، أنا بحاجة إلى رجلٍ يكون نظيفاً وأميناً في الوقت نفسه .

بطرس للمصري الأول : خُذْني ، يامعلم ، فستكون راضياً كلّ الرضا . خُذْني . اشترني . سأخدمك كابنك ، كما يخدم الابنُ اباه .

المصري الأول لبطرس : أعجبتني . وسأشتريك . (مخاطباً اليعازر) . أعجبني هذا . قُلْ لي : ما ثمنُه ؟

اليعازر ، يُذعن ، مُضْنىً ، يَمدُّ يده ويَخْفض رأسه : مئة درهم . ليستْ مئةُ الدرهم كثيرةً بمثل هذا الرجل . (ينهار اليعازر ويبكي وهو يُمْسكُ المالَ بيده :) لا أستطيع . هذا فوق طاقتي . لم أعد أحتملُ . ماذا فعلتُ ؟

بطرس ، مقبّلاً اليعازر : الوداع . لا تَنْسَ . وَزِّعْ المالَ كلّه كما قلتُ لك : لا تَنْسَ : المال كلّه ! كلّه ! لقد أقدمتُ على ذلك !

اليعازر : ياسيّدي ، اغفرْ لعبدك المتواضع ! اغفرْ لخادمك ! اغفر لي ما فعلْتُ ! اغفرْ لي ، يامعلّم ! سأفعل بحسب مشيئتك. سأفعل كلّ شيء لترْتاحَ نفسُك . وداعاً ، يامعلّمي العزيز .

بطرس : اسكتْ ! كفى نحيباً . الوداع ، اليعازر ! الوداع !

(يبتعد بطرس ، يقتاده المصري ، بينما يظل اليعازر وحده مع ألمه ينْتحبُ)

ستار

الفصل الخامس

المشهد — ١ —

« تجري الأحداث في مصر . البوابُ الأخرسُ يُدخل الطبيب والتجار من باب الدخول ، ويُفهمهم بالإشارات أن معلّمه سيأتي بعد قليل »

الطبيب : يريد أن يقول لي : إن معلّمه في البيت ، وأنه سيأتي ، ولذلك أشار إلينا بالدخول . هيّا ! ليس لنا إلا أن نَصبِرْ ! فَلْندخُلْ !

المشهد — ٢ —

« لا يلبث أن يصل المصريُّ الأول الذي يخاطب التّجار »

المصري الأول : يُفْرِحُني أن أراكم عندي . وأنا أستقبلكم بأعظم السرور . اجلسوا أرجوكم . لا بدّ أنكم تعبتُم ، وجُعتُم . ولن ترفضوا لي وجبةً سريعةً متواضعة ؟

تاجر : شكراً ، وتشرّفْنا . شكراً لضيافتك ! نشكركَ لفضلكَ علينا . صديقي ، وهو طبيب سوري ، وأنا نفسي وصلنا من سورية وجئنا لمسألةٍ عاجلةٍ في هذه المدينة . نحن سعداء جداً أن يكون مضيفنا بهذا اللطف ، ويُفرحنا أن نتعرّف بك.

المصري الأول ، ينادي ويصفق بيديه : ميثودا . ميثودا . ! تعال ، تعال بسرعة ! (يخاطب ضيوفه) تفضّلوا واجلسوا .

المشهد — ٣ —

« يدخل بطرس ، في لباس الرقيق الخادم ؛ وإذْ لمحَ الطبيب وعرفه يَرْتعب لحظةً ويشيح بوجهه . »

بطرس : ماهي أوامركَ ، يامعلّم ؟

المصري الأول : هاتِ لضيوفنا الأعزاء خبزاً ونبيذاً وعنباً . هم قادمون من سورية ، من بلدك ! أتَعرفُهم ؟

بطرس ، مرتبكاً : لا ، لستُ أعرفُهم ، ولم أرهم قط .
(يتشاغل حولهم ثم يتوارى .)

الطبيب ، يخاطب المصريَّ الأول ، صاحب البيت : هل زرتَ سورية ؟ أتعرفُ مدينتنا ؟

المصري الأول : نعم ، أعرف سورية ؛ ذهبتُ إلى مدينتكم منذ نحو ثماني سنوات . نعم ، منذ نحو ثماني سنوات . والواقع أنني حصلتُ على هذا العبد الذي رأيتموه الساعة ، في الوقت الذي كنتُ فيه هناك .

الطبيب : إن هذا المثيرٌ ! مصادفة عجيبة ! حدثٌ غريب ! وهذا يتوافق مع شيء مُذهل حدث في مدينتنا ، في هذا التاريخ بالذات . نعم ، في هذا التاريخ بالتحديد ، حَدَثَ حدثٌ لم يستطعْ أحدٌ ، حتى الآن ، أن يفهمه أو يفسّره .

المصري الأول : أيمكن أن نَعْرف هذا الحدث ؟ وفيمَ كان هذا

الحدثُ الذي ذكرتَه لي شديدَ الغرابة بحيث ترك مثل ذلك الانطباع في مدينتكم ، ارو لي هذه القضيّة . ماذا جرى ؟ إني أتحرّق شوقاً إلى سماعها .

الطبيب : القضيّة ، هذه هي : في ذلك الزمان ، كان بطرس الخبّاز أحد أغنى الناس في المدينة — في مدينتنا — وأحد كبار الأثرياء في سورية ، ومن أغنى أصحاب الأملاك والأراضي الشاسعة ، لكنه كان في الوقت نفسه أبخلَ رجل في البلاد . وفجأة آمن — آمن بحسب الشريعة المسيحية — واستولتْ عليه حماسةٌ عجيبة ، فأخذ يوزع أمواله على الفقراء . ولما عارضتْ أسرتُه هذا التبذير الذي لم تعرف سببه ، خططّ لبيع نفسه كما يُباع الرقيق وتوزيع ثمن شخصه على فقراء مدينته التي ولد فيها . ثم لم يسْمع أحدٌ عنه شيئاً ، لقد اختفى بسرعة غريبة .

التاجر : ولقد بحثتْ زوجتُه عنه ، لكن دون جدوى ؛ إذ لم يره أحدٌ . وهي تُرسل كلّ يوم الرسل للعثور عليه . لكن هذا الجهد يذهب سدى لإن جميع الرسل يعودون صفْر الأيادي . ولا يستطيع أحد أن يعلم ما الذي أصابه .

المصري الأول : يالها من قصة مُدهشة ! يالهذا الإخلاص الرفيع ! يالإنكار الذات ! وكم عمرْه ، ياترى ؟ وماهيئته ؟ قولوا لي تقريباً لكي أتمكّن من مساعدتكم . ارسموا لي صورتَه ، أعطوني أوصافَه ؛ وهكذا سيكون ذلك أسهلَ عليّ .

(عند ذلك يظهر بطرس حاملاً وجبةً خفيفةً تتألّف من

الخمر والفواكه .)

الطبيب : عمرُه في نحو الخمسين ، قامتُه متوسّطة ، وبدانته متوسطة أيضاً . وكان أقرب إلى النحافة منه إلى السُمنة . إنه يُشبه هذا العبد .

(يشير بيده إلى بطرس . في هذه اللحظة يُصاب بطرس بالذهول ، فيغطّي وجهه بيديه ويخرج على عجل .)

ما أوسَمَ وجهَ هذا العبد . لا شك أنك مسرور منه .

المصري الأول : ليس هذا عبداً عادياً . هذا العبدُ من ذهب ، بالنسبة إلي! إنه صديقٌ ، على الأصح . فمنذ أن جئتُ به إلى بيتي ، إلى خدمتي ، ازدهرت أعمالي ، ووفِّقْتُ في كل شيء . وقد عَرَضْتُ عليه ، غير مرة ، أن أُعتقه ، أن يفتدي نفسه، لكنه رفض . ولم أفهمْ لماذا ، لكني لم أسألْه قط عن ذلك . إنه عبدٌ لكني لا أعتبره كذلك . إنه خادم أمين . وهو أفضل من عَرَفْتُ وأشرفُ مَنْ عرفتُ . (ينادي .) ميثودا . ميثودا ! تعال ! تعال حتى أقدّمك لهم .

(يعود بطرس ولا يجرؤ على أن يتقدّم .)

الطبيب ، يخاطب التاجر : انظرْ ، انظرْ إليه جيّداً ما أشبهه ببطرس الخبّاز .

(عندما يسمع بطرس هذه الكلمات واسَمهُ ، وعندما يرى أنهم عرفوه ، يندفع إلى الباب)

الأخرس : كان قديساً ! كان قديساً ! رأيت ذلك بعيني . رأيت إشعاعَ النور الذهبي يلفّه كالّه بهالةٍ عندما خرج إلى الشارع .

المصري الأول : هذه معجزة ! ها هو الأخرس يتكلمّ !

التاجر والطبيب ، يهتفان معاً : لقد عَرَفْناه ! هذا هو ! هذا هو بعينه ! لقد ذهب لكي لا يكرّمه أحدٌ .

ستار